سمعان صيدناوي .. المغامر الشريف

رجل عصامي من الطراز الأول بني بيديه صرح مجده وغناه لبنة لبنة حتى سمق وعلا وكان من الصروح الممردة المنيفة التي بدل بها الشرق العربي ويزهي ويباهى.

لم يكن سمعان صيدناوي في الرواد الكاشفين الذين يركبون الأخطار ويضربون في مجاهل الأرض مجازفين مغامرين ليعثروا على مناجم الذهب ويعودوا منها ممتلئي الحقائب والوطاب ولا كان من المضاربين في أسواق المال والأوراق ممن يلتمس الغنى والثراء في طرفة عين أو بين عشية وضحاها معتمدًا على حسن الجد والطالع ليختصر الطريق إلى قمم الفوز والنجاح. كذلك لم يكن في العلماء المخترعين الذين يوفقهم الله إلى إختراع نافع تتبناه الصناعة وتجعله في متناول الناس أجمعين وتدر على صاحبه أخلاف الرزق والثراء العريض. ولا هو عثر على حجر الفلاسفة فتمكن به من تحويل المعادن إلى ذهب وهاج.

ما كان سمعان صيدناوي واحدًا من هؤلاء ولكنه كان جميع هؤلاء فالعمل هو الذي كشف له مناجم الذهب، فأغترف منها، والإستقامة هي التي ضارب بها في أسواق التجارة الشريفة الحرة، فغمرته بدفعات الكسب الحلال. أما الذكاء فكان وسيلته إلى التفنن في الإختراع والإبتكار ففتح له مختلف أبواب الرزق وأما الإحسان فكان حجر الفلاسفة الذي قلب النحاس في يديه نضارًا فكلما أمعن في الإحسان زاده الله نعمًا وحول آماله

وأمانيه إلى حقائق ملموسة تتألق على جنباتها أشعة الظفر والفلاح.

نشأته

ولد المترجم له بمدينة دمشق سنة ١٨٥٦ من أسرة طيبة معروفة بحسن السيرة وصفاء السريرة كانت قد نزحت منذ زمن طويل من قرية «صيدنايا» إلى العاصمة وتلقي الصبي سمعان العلم في مدرسة من مدارس دمشق حتى إذا بلغ أشده كان قد ألم بما كان يلم به لداته في ذلك العهد من أطراف العلوم والآداب واللغات.

ها هو ذا فتى في ريعان الشباب قد تزود للحياة بأفضل زاد العصر مكنه منه ذووه غير وانين عن تضحية في هذا السبيل ليعدوه إعدادا حسنًا للجهاد والكفاح في الحياة وليكون لهم السند القوي والعماد المرتجى. وتضاربت الآراء في نوع العمل الذي يزاوله وطال بحث ذويه وتقصيهم وتملكت الفتى حيرة تتملك كل فتى يترك مقاعد الدراسة إلى مدرسة الدهر فهو بين نار الحماسة المتقدة في صدره ونار التلهف إلى عمل يضطلع به ويسير فيه إلى أبعد الغايات.

وتسوق الأقدار الفتى سمعان إلى تاجر من تجار العاصمة واسع الرزق والعمل والتجارة فيجعله في عداد موظفيه ويعهد إليه في عمل كتابي ينهض به على أحسن وجه ثم ينيط به بعد ذلك مختلف الأعباء والأعمال فيتوفر عليها بهمة ونشاط وذكاء وأمانة فلا تنقضي سنوات خمس حتى يكون على حداثة سنه مستشار الرجل وأمين سره وصاحب المنزلة الأثيرة لديه يعتمد

عليه في شؤون تجارته وضبط أعماله والسهر على مصالحه.

وبلغ من إعجاب الرجل بالشاب سمعان ومحبته له وإيثاره إياه أن هم بتزويجه من أبنته على إختلافهما في الدين فخشي أهل الفتى الفتنة، فأوعزوا إلى عم الفتى بالقاهرة أن يدعوه إليه ففعل ولبي سمعان الدعوة وشد رحاله إلى القاهرة تحدوه إليها الأماني الجسام.

الهجرة إلى مصر

مصر... ما أعذب هذا الإسم في أفواه العرب، وما أجمل الآفاق التي تتطلع إليها النفوس كلما رف على الأسماع ذكر مصر أو جال بالخواطر. مصر هي بلد الآمال والأحلام للعربي الذي ينبو به وطنه فيضرب في فجاج الأرض. كانت مصر في عهد المترجم له قبلة الأنظار وكعبة الرواد وكانت الهجرة إلى مصر قد جد جدها فقصدها رجال القلم هربًا من الظلم والإستبداد وسعي إليها المكافحون المجتهدون طلبًا للرزق من مناهل نيلها الفياض وكان من الطبيعي أن يدور ذكر مصر على الألسنة في بلاد الشام بعد إذ أستوطنها نفر غير قليل من الشاميين نعموا فيها بالأمن والدعة والحرية ولقوا فيها ميدانًا واسع المسالك والشعاب لجدهم ونشاطهم فتواترت على الوطن الأول أنباء أبنائه المهاجرين وكلها أنباء حلوة طيبة سارة فما عتمت مصر أن أصبحت الجنة التي يحلم بها الشباب فالسعيد منهم من حقق الدهر له حلمه الجميل وساعده على النزول بواديها الأمين الخصيب.

بمثل هذه الفرحة الشاملة التي تخف لها أحلام الرجال أستقبل الشاب سمعان دعوة عمه فما هي إلا أسابيع قليلة حتى كان مشدوها بعظمة مصر وجمال القاهرة...

نزل سمعان بالقاهرة في سنة ١٨٧٨ وكان عمه نقولا صيدناوي تاجر أصواف في حي الحمزاوي فألحقه بالعمل عنده ولم يفكر ولا فكر الفتى في السعي إلى الالتحاق بوظيفة كتابية في دائرة من دوائر الحكومة أو في شركة من الشركات الكبرى. ولعل البيئة التجارية التي عاش فيها بدمشق وأنتقل إليها في كنف عمه بالقاهرة قد حصرت تفكيره في التجارة وضروب أعمالها وما من شك أيضًا في أن التجارة فن من الفنون لا بد له من إستعداد خاص وموهبة خاصة وإلا كان صاحبه كالقابض على الماء فالعمل الذي لا يعدنا الله له ولا يهبنا ملكته ولا نزاوله بحب وشوق وشغف هيهات أن ننجح فيه ولو بذلنا له وافر القوى وأرسيناه على أضخم القواعد والأركان.

ولا جدال في أن سمعان صيدناوي كان الله قد وهبه ملكة التجارة ويسر له العمل والحياة في بيئة تجارية وحباه نفسًا جادة نشيطة مجتهدة تحب العمل الذي وقفت عليه فكأن الله قد منحه بذلك أول مقومات النجاح.

مائة جنيه

مكث سمعان يعاون عمه في عمله مدة ثلاثة أشهر وأظهر من ضروب النشاط والحذق ما حمل عمه على العناية بمستقبله، فمثل هذه الطاقة من النشاط يجدر بها أن تستغل في عمل مستقل يستفيد منه الفتى ويشيد به

صرح مستقبله فنفح أبن أخيه برأس مال صغير أضيف إلى المبلغ الضئيل الذي كان سمعان قد أدخره من عمله بدمشق ولعل هذا وذاك لم يبلغا مائة جنيه فكانت هذه المائة من الجنيهات رأس مال حانوت صغير في الحمزاوي لا تزيد مساحته عن مترين في مترين أستقل به سمعان وتعاطي فيه تجارة ما نسميه بمصر بـ الخردوات وهي مجموعة من السلع الصغيرة كبكر الخيط والمناديل والقمصان الداخلية والأزرار والشرائط والجوارب والأقمشة الرفيعة المخرمة وما لي ذلك.

وسار الفتى على بركة الله يدير محله الصغير بنشاط لا يعرف الملل وهمة تفتك بالصعاب ومقدرة فذة راضيًا بالربح القليل مقتصدًا في النفقات حتى بدأت بواكير النجاح تبتسم له إبتسامة الخيط الرفيع من النور قبل إنبلاج الفجر

وترامت أخبار سمعان إلى أهله بدمشق فقرت أعينهم وحببت إلى سليم أخيه الأكبر أن يولي وجهه شطر مصر شطر جنة الله في أرضه ليجني من ثمرة كده وفلاحه فها هو ذا شقيقه سمعان لم يحل عليه الحول بمصر حتى إستقامت له تجارة ولو صغيرة يكسب منها رزقه في جو مشبع بالحرية والاستقلال.

الإخوان بالحمزاوي

هبط سليم القاهرة فأخذ كما أخذ شقيقه سمعان من قبل بمعالمها العظيمة ومجال العمل الواسع فيها فطاب له أن يزاول بها الصناعة التي كان

يزاولها بدمشق وهي خياطة الملابس. فأشترك هو وصديق له يدعى متري صالحاني وفتحا دكانًا لخياطة الملابس فقد كان سليم حاذقًا في هذه الصناعة غير أن القدر بعد أن بسم للشريكين قليلًا فجعهما بإحتراق الدكان وذهاب ما فيها طعمة للنار. فطيب سمعان خاطر أخيه ونصحه بهجر صناعة الخياطة وأقترح عليه مشاركته في حانوته فرضي بالإقتراح وأضاف إلى رأس مال الحانوت ما كان قد أدخره من نقود وهكذا أسس محل «سليم وسمعان صيدناوي» في ذلك الحانوت الصغير بحي الحمزاوي.

انقطع الشقيقان إلى عملهما لا تأخذهما فيه ونية ولا هوادة وأفرغا عليه من نشاطهما وجهدهما ما أنتزعا به من يد الدهر قصب السبق والفلاح، فالعمل ولا شيء غير العمل هو شغلهما الشاغل وهو الأنس والبهجة والمراح، فما عرفا طريقًا إلى مقهى يقطعان فيه الوقت بمدى الكسل والتراخي، وإنما عرفا طريقًا واحدة يذرعانها كل يوم بين حانوتهما الصغير وغرفتهما المتواضعة التي يسكنانها في حي درب الجنينة». فكانا إذا أقبل المساء وإنقطعت السابلة سهرًا في دكانهما حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلًا يدبران أمورها وينظمان شؤونها، ويرتبان رفوفها وعلبها ويصفان صررها وبقجها ليستقبلا العملاء في صباح اليوم التالي على خير وجه من الإستعداد والنظام والترتيب. وكانا إذا أويا إلى غرفتهما دارت أحاديثهما على البيع والشراء وعلى حركة الأخذ والعطاء يتفننان في إبتكار الوسائل التي تقودهما في معارج النجاح.

مثابرة وجهاد

ولئن كان الأخ الأكبر لم يعمر طويلًا فإن سمعان قد عمر حتى بلغ الثمانين فما خبا له نشاط حتى في شيخوخته فكان يقبل على العمل في الصباح مع مستخدميه أو قبلهم وينصرف في المساء بعدهم فرجل هذا شأنه وهذا تقديسه للعمل وإنقطاعه إليه ناجح لا محالة في الحياة فالنجاح طائر يقتنص بشرك العمل ولنا بسيرة سمعان صيدناوي الأسوة الحسنة والمثال الحي.

مشي الاخوان بحانوتهما الصغير من نجاح إلى نجاح وكافأهما الدهر على همتهما القعساء وجهادهما المتواصل ولكن العمل لم يكن وحده السهم الذي ضربا به كبد الفلاح والنجاح فهناك عامل آخر كان له نصيب كبير في نجاحهما وهو الإستقامة والصدق في المعاملة وإلتزام الكسب الحلال ليس إلا... وفي حياة سمعان صيدناوي الطويلة أمثلة كثيرة للإستقامة التي كانت عاملًا من عوامل نجاحه وإليك مثلًا واحدًا منها:

كانت نساء البيوتات في عهده لا ينزلن إلى الأسواق مشتريات. وإنما كن ينلن ما يبتغين بوساطة الدلالات وهن نسوة كن يطفن بالدكاكين وينتقين منها الأقمشة والسلع ويعرضنها على ربات البيوت المخدرات فيشترين منهن ما يروق في أعينهن ويحلو.

وفي صباح يوم من الأيام بينما كان سمعان في دكانه الصغير قد أستعد لإستقبال العملاء وافته إحدى الدلالات وإشترت منه عشرين مترًا من

الشبيك المخرم (الدنتلة) ونقدته الثمن وإنصرفت وراجع سمعان مبلغ النقود بعد إنصرافها فإذا هو ضعف ما يقتضي ففطن إلى أن الدلالة حسبت السعر «بالقرش الصاغ» في حين طلب هو السعر بالقرش التعريفة»[٣] فركض خلفها ليفهمها أنها غلطت في الحساب، وليرد إليها فرق الثمن فأدركها على مسافة بعيدة وصاح فيها وهو يلهث:

– حسابك مغلوط يا سيدتي

– لا. لا. لا غلط. دفعت الحساب تامًا كاملًا.

وأصمت أذنيها عن سماع أي شرح وتفسير كان وهمت بمتابعة السير إلى غايتها فأستوقفها وقال:

– دفعت زيادة عن المطلوب. دفعت ضعف الثمن.

فأصاخت إليه وعادت معه أدراجها إلى دكانه، وبين لها مصدر الغلط ونقدها الفرق فتهلل وجهها وشكرته على إستقامته وأمانته وأستودعته الله وإنصرفت تنقل الخبر إلى سيدات الدائرة» من عميلاتها وتروي لهن أمانة «الجدع الشامي الحليوة» وكان سمعان على ما وصفت الدلالة وسامة وقسامة حباه الله جمال الخلق والخلق، فتطاير الخبر من دائرة إلى دائرة ومن بيت إلى بيت، وأصبحت سيدات القصور والبيوتات يوصين الدلالات بإبتياع حاجاتهن من دكان الشاب الشامي الوسيم الأمين.

---

٣ من العادات بمصر إطلاق لفظ القرش الصاغ على القرش الواحد الصحيح ولفظ القرش التعريفة على نصف القرش.

شهرة ونجاح

اتسعت أعمال الأخوين وكثر عملاؤهما وإزدادا همة ونشاطًا وتدفق عليهما الرزق وأصبح لهما في المصرف رصيد يعتد به جمعاه بالجد والإجتهاد والمثابرة ففكرا في الإنتقال بتجارتهما إلى مكان أوسع فأشتريا في حي "الموسكي" منزلًا قديمًا هدماه ثم شيداه تشييدًا جديدًا يفي بالغرض الذي توخياه وإفتتحاه في عام ١٨٩٦ وكان أكبر محل للبيع بالقاهرة في ذلك العهد، وهو الذي كان معروفًا بمحل "بلاتشي" في حي «الموسكي» فنظماه صفوفًا وأجنحة وخصصا كل جناح بضرب من السلع ففتح الله عليهما أبواب الرزق وصارت أمنية كل شار أن يزور أولًا محل سمعان ويبتاع منه ما يهوى ويشتهي.

وطارت شهرة المحل وأصبح لا يعرف إلا بمحل سمعان لأن سمعان كان فيه الركن الركين لا يغيب عنه لحظة واحدة من لحظات النهار ذلك بأن الأخوين كانا قد إقتسما العمل فيما بينهما فأختص سليم وكان إداريًا حازمًا بمهمة الإدارة والشراء وتزويد المحل بالسلع اللازمة يسافر من أجلها إلى أوربا ويشتريها من مواردها الأصيلة، وأختص سمعان وكان لسنًا لبقًا ظريفًا بمهمة إستقبال العملاء والإشراف على صفقات البيع وإرضاء كل عميل فلا يخرج من محله إلا وهو شاكر راض. فكان من حسن إدارة سليم أن سار محلهما سيرًا قويمًا منظمًا. وكان من بعد نظره أن وظف الفائض من أموالهما بشراء الأرضين التي يتوسم لها مستقبلًا زاهرًا، فإشترى كثيرًا من العقار والأرض الفضاء في حي الخازندار وحي إبراهيم باشا وكان من قبل

يعرف بحي نوبار باشا، فإرتفعت قيمة الأرض والعقار على توالي السنين، وجني الإخوان من ذلك الربح الحلال. وكان من إضطلاع سمعان بشؤون البيع والسهر على رضى العملاء أن نمت تجارتهما نموًا مطردًا ودارت كلمة «سمعان» على كل لسان حتى أن النساء المحصنات ما كن يرضين ببضاعة تزجيها إليهن الدلالات إن لم تكن ملفوفة بورق يحمل أسم سمعان.

وازداد الإقبال على محل سمعان فأصبحت رقعة المحل على كبرها وأتساعها لا تفي بإزدياد حركة البيع وإزدحام العملاء فأشتري الإخوان محلًا جديدًا إزاء محلهما الكبير يقع على شارع الخليج المصري وخصصاه ببيع "المفروشات" فدرت عليهما الإستقامة ودر عليهما العمل الحثيث الجزاء الأوفى يهطل عليهما من شآبيب محلهما الكبير ومحلهما الجديد ومحلهما الصغير الأول في حي الحمزاوي.

وينتقل سليم الأخ الأكبر فجأة إلى رحمة الله في سنة ١٩٠٨ فيجزع عليه سمعان جزعًا شديدًا ويفقد فيه شقيقًا غاليًا ونصيرًا ومعاونًا ويأبى أن يستقل بالعمل وحده من بعده فيشرك معه ورثة أخيه.

محلات صيدناوي بالخازندار

وينهض سمعان بالعبء العظيم وتزداد أعماله أتساعًا ويزداد هو جلدًا على الجهاد والكفاح والعمل المتواصل ويرى أن ثقة الناس به تضطره إلى التوسع فيقرر توحيد محاله الثلاثة في محل واحد كبير واسع ولم يجد خيرًا من العقار الذي يملكه في حي الخازندار وكان مجموعة من الدكاكين والمقاهي

فبدأ يهدمها في سنة ١٩١١ ويبني على أنقاضها محله العتيد الكبير حتى فرغ من البناء في سنة ١٩١٣ واحتفل بإفتتاح «محلات سليم وسمعان صيدناوي» في اليوم الثاني من شهر نوفمبر من عام ١٩١٣.

وكان نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه إلياس قد بلغوا في ذلك العهد طور الشباب والرجولة فعهد إليهم في إدارة هذا المحل الكبير وبقي هو حتى آخر لحظة في حياته يضطلع بالعمل كأي فرد من الأفراد حتى توفاه الله عن شيخوخة صالحة في سنة ١٩٣٦ بعد إذ أكتحلت عينه برؤية حانوته الصغير في حي الحمزاوي ينمو وينمو وينمو حتى ينقلب إلى ذلك البناء الواسع الفخم في حي الخازندار وحتى يكون له فروع بالإسكندرية والمنصورة وطنطا والفيوم وأسيوط وبور سعيد وباريس ومنشستر، ويضطلع اليوم بإدارة هذا العمل الواسع أنجاله وأحفاده يتزعمهم نجلاه يوسف وجورج ونجل شقيقه إلياس ناهجين جميعًا نهج الأبوين في العمل والإستقامة والذكاء والإحسان.

عناصر النجاح

يعزي نجاح سمعان صيدناوي إلى العمل والإستقامة وهما عنصران رئيسيان من عناصر النجاح ويعزي نجاحه كذلك إلى الذكاء الفطري الذي توجهه الملكة التجارية فالعمل المضنى والإستقامة إذا أجتمع إليهما الذكاء تألف منهما ثالوث كفيل بأن ترسى عليه قواعد النجاح. ولقد كشفنا في نفس سمعان صيدناوي أقنومين من ذلك الثالوث فلنجتزئ في الكشف عن الأقنوم الثالث في نفسه بسرد الواقعتين التاليتين ففيهما الدليل المقنع على

الذكاء المنبعث من الملكة التجارية فيه:

كان سمعان ذات صباح واقفًا على باب محله في حي الموسكي يشيع بإبتسامته الحلوة وتحيته الرقيقة العملاء الخارجين من محله بعدما إبتاعوا منه حاجاتهم فلمح وراءهم سيدة صفر اليدين قد جمعت ملاءتها وهمت بالخروج فأقبل عليها كعادته يسألها لماذا لم تشتر مطلوبها، فقالت له أن الأثمان عندكم غالية، فبكرة الخيط تباع بتسعة مليمات وأنتم تبيعونها بعشرة، فطيب خاطرها وعاد بها إلى جناح بكرة الخيط وقال:

– كم بكرة تريدين يا سيدتي؟

– أربع وعشرون.

فأمر البائع بحسبان سعر البكرة الواحدة بتسعة مليمات فأفترت أسارير المرأة وعلت وجهها قسمات الرضي. وكانت إحدى الدلالات جاءت تبتاع جهاز عروس فإبتدأت ببكر الخيط. وكان الجناح الخاص به في مقدمة المحل ثم ما لبثت أن إبتاعت كل ما تريد فبلغت قائمة الحساب ١٢٠ جنيها ذهبًا نفدته إياها راضية مسرورة، فلولا ذلك المليم الذي نزل عنه لفاته الربح الذي جناه من بيع تلك الصفقة، ولكنها النظرة السديدة وذكاء المهنة...

والواقعة الثانية تتلخص في أن سمعان كان في سنة ١٩٠٨ يصطاف بلبنان فأنتهي إليه أن الشيخ سلامة حجازي قد وفد إلى بيروت على رأس جوقه الشهير فخف سمعان هو ونفر من أصدقائه المصريين إلى بيروت

لسماع الشيخ سلامة، ولكن الشيخ عز عليه أن لا يزيد عدد النظارة على عدد أصابع اليدين فألغي الحفل وأدعي المرض فذهب إليه سمعان وصحابه يعودونه ويستفسرون عن صحته فأخبرهم بخيبة أمله، وبأنه صحيح معافى ولكن يشق عليه بعد النفقات الطائلة التي تجشمها أن يغني ويمثل في حضرة أفراد قلائل لا يملئون مقاعد صف واحد من صفوف القاعة فأخذ رفاق سمعان يواسون الشيخ سلامة ويمنونه بالإقبال في الليالي المقبلات فيجيب الشيخ على هذه الأماني ببسمة صفراء تشتمل كل معاني اليأس والقنوط. وعلى حين فجاة ينتفض سمعان ويقترب من الشيخ وهو يقول:

– يا عزيزي الشيخ

– لبيك يا أخي سمعان

– إن الشعب اللبناني مرح طروب يقدر الغناء ويعشق الصوت الجميل ولكنه لا يتحرك إلا عن ثقة وإقتناع وهذه هي المرة الأولى التي تزور فيها بيروت فأعذره إذا هو لم يعرف من هو الشيخ سلامة حجازي.

فلم يخرج الشيخ عن بسمته الصفراء فأستأنف سمعان حديثه وقال:

– ألم تكن يا عزيزي الشيخ ترتل القرآن وتعلو المآذن قبل أن تعلو المسارح.

– بلى...

– إذن تذهب غدًا وهو يوم جمعة إلى مسجد بيروت وتؤذن الظهر

بصوتك الرخيم فيتساءل عنك الناس حتى يعرفوك ولسوف يقبلون على مسرحك في المساء وأنا كفيل بأنه لن يكون فيه موضع لقدم.

وكان ما قدره سمعان...

ليس الذكاء علمًا بالغيب وإنما هو تقدير صحيح للأمور ونتائجها فمن وهب ملكة من الملكات ساعده الذكاء المنبثق منها على جلاء الغوامض وتدارك العواقب. فالملكة التجارية هي التي أوحت إلى سمعان بذلك الاقتراح فنعم الشيخ سلامة بنتيجته الحسنة. ونحن إن عرفنا عن سمعان صيدناوي هاتين الحادثتين وحكمنا له إستنادًا إليهما بالذكاء فما من شك أن هناك كثيرًا من مثيلاتهما عرضت له في الحياة ووجهه فيها الذكاء وبقيت سرًا مكتومًا توشح بها سر النجاح.